خطبة صلاة الجمعة 14/3/2014 للشَّيخ الطّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة– انسحاب الأب من تربية الأبناء)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:135].

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين:14]» [رواه الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السادسة في سلسلة: (أخطاء شائعة).

هدف السلسلة: السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي).

وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوع الأول عنوانها:

(انسحاب الأب من تربية الأبناء)

أيها الإخوة:

راجعت آياتِ القرآن الكريم وبعضَ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تتحدث عن تربية الأبناء، فوجدتها تخاطب الزوجين، وتكلف بالتربية الأبوين، وتحمّل المسؤولية للطرفين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، والخطاب في الآية عامٌّ للرجال والنساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، والخطاب في الآية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولأمته من بعده، ذكَرِهم وأنثاهم.

وقال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾, ومن جملة ما يُسْأل المرءُ عنه: يُسْأل عن أولاده؛ أحفِظ تربيتهم أم لا؟ والسؤال للآباء والأمهات أجمعين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «...**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَن رَعِيَّتِهَا**» [البخاري ومسلم]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيّع، حتى يسأل الرجل على أهل بيته**» [النسائي في الكبرى والضياء في المختارة، وصَدْره عند الترمذي]

والحديثان صريحان بمسؤولية الزوجين معاً عن تربية الأبناء.

ثم إني -أيها الإخوة- راجعتُ عدداً من كتب التربية وعلم النفس والإرشاد الأسري، فرأيتُها مُطْبِقةً على دور الأبوين في تربية الأبناء، ومجمِعةً على الآثار السلبية لانسحاب أحدهما أو تخلّيهِ عن واجبه.

ولكنَّني وجدتُ خطأً شائعاً عندنا نخالف فيه أوامر الشرع، ونجانب فيه نصائحَ أهل التربية؛ عندما ينسحب الأبُ من تربية أبنائه لينصرف عنهم إلى غيرهم، ويُلقي بالثِّقْل كلِّه على الأم.

صحيحٌ أنَّ لكلٍّ من الزوجين دوراً في الحياة الأسرية (فالأبُ يجني، والأمُّ تبني)، وصحيح أنَّ الأم تملك الوقت الأكبر للتهذيب والتعليم والتنشئة، ولكنْ لا يعني هذا أبداً غيابَ الأب وانعدامَ أثرِهِ في التربية.

تحدث واحدٌ من الأبناء بكلمات موجعة، فقال: سافر أبي من خمسَ عشرةَ سنة إلى دولة نفطية، يعمل ويرسل لنا النقود، يزورنا شهراً في كل عام، لا أشعر بأنَّ لي أباً يربي، ولكنه أبٌ يغذي، لا أتحسَّسُ عاطفةً نحوَه، ولم أعدْ أشعرُ بفقده لأنَّني اعتدتُ أن أستيقظ كل صباح فأجد أمَّاً ولا أجدُ أباً..

وكما يسافر هذا الأب لسنوات ويدع زوجه وأولاده فلا يأتي إليهم إلا شهراً في السنة، هناك أبٌ يخرج إلى عمله صباحاً ولا يرجع إلا في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل!

وذاك موظفٌ اعتاد بعد تناوله الغداء واستراحة الظهيرة أن يخرج من البيت فلا يرجع إلى منتصف الليل لاهياً لاعباً مع أصحابه، وربما عاد يوماً فالتصق بأقنية الفضاء أو مواقع الانترنت، أو رسائل المحمول، فهو الموجود المفقود!

وذاك أبٌ فقَدَ عمله في الأزمة، ومع ذلك يخرج من البيت فلا يعود إليه إلا بعد نوم الأبناء.

تسألُ الأبَ عن الصفوف المدرسية لأولاده فيعرف بعضاً ويجهلُ آخر، فإذا سألتَه عن عدد أجزاء القرآن الكريم التي يحفظها ولده أعياهُ السؤال، وربما مرضَ الابنُ وتعافى ولم يدْرِ الأبُ بمرضه ولا بشفائه، ومتواترٌ عندنا أن جلسات أولياء الأمور في المدارس تحضرها الأمهاتُ ويغيبُ عنها الآباءُ إلا مَن رحم ربي.

قال ابن القيم: (وصيةُ الله للآباء بأولادهم سابقةٌ على وصية الأولاد بآبائهم, فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركَه سدىً, فقد أساءَ غاية الإساءة, وأكثر الأولاد إنما جاء فسادُهم من قبل الآباء,

وإهمالهم لهم, فأضاعوهم صغاراً, فلم ينتفعوا بأنفسهم, ولم ينفعوا آباءهم كباراً). [تحفة المودود بأحكام المولود]

سئل رجلٌ حُبِسَ ظلماً سنواتٍ طويلة: ما أشدُّ ما لقيتَ في السجن؟ فقال: فقدي لتربية أبنائي!

أيها الإخوة:

يذكر الاختصاصيون لانسحاب الأب من تربية أبنائه آثاراً سلبية، منها:

1) افتقادُ الاحترام والحب والبرّ من قِبَل الزوجة والأبناء، فلا يعني لهم رضاه وإسعادَه شيئاً.
عاتب أبٌ ولدَه على العقوق فقال له الابن: (يا أبتِ, عققْتَني صغيراً فعققْتُك كبيراً, وأضعْتَني وليداً فأضعتُكَ شيخاً).
2) تزايدُ الضغوط النفسية على الزوجة؛ لأنها تقوم بدور الأم والأب معاً.
3) الفراغ العاطفي الأبوي عند الأبناء، والبحث عن بديل في أشخاص غير مناسبين.
4) تزايد مشكلات الأبناء الكبار؛ لأن الأم لم تعُدْ تستطيع السيطرة عليهم.
5) افتقادُ الأسوةِ الحسنة المتمثِّلة في الأب العاقل الموجِّه الحاني، والبحث عن قدواتٍ بديلةٍ، وربما وقع الاختيارُ على الماجنين المسيئين؛ الأمرُ الذي يؤدي إلى انحراف الأبناء.

أيها الإخوة:

الأبناءُ زينةُ الحياة الدنيا، وقرةُ العين، ورحمةُ الله تعالى. وهم فوق ذلك البشرى والسرور: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ .

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس, فقال: (يا أبا بحر, ما تقول في الولد؟) فقال الأحنف: (يا أمير المؤمنين, ثمار قلوبنا, وعماد ظهورنا, ونحن لهم أرضٌ ذليلةٌ, وسماءٌ ظليلةٌ, فإن طلبوا فأعطِهِم, وإن غضبوا فأرضِهم, يمنحوك ودَّهُم, ويُحِبُّوك جَهْدَهم, ولا تكنْ عليهم ثقيلاً, فيمَلُّوا حياتَك, ويحبوا وفاتَك)، فقال: (لله أنت يا أحنف, لقد دخلت عليَّ وإني لمملوءٌ غضباً على يزيد, فَسَلَلْته من قلبي)، فلما خرج الأحنف من عنده, بعث معاوية إلى ابنه يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم, ومائة ثوب –شاطره إياها–.

إن من الخطأ الشائع -أيها الإخوة- أن ينسحبَ الأبُ من تربية أولاده، والصوابُ مشاطرتُه الأمَّ تربيتَهُم؛ ليستقيم عودُهم، وتعتدل أخلاقُهم، وتسلم عقيدتُهم؛ فيكونوا خيرَ خلفٍ لخير سلف.

وأقلُّ ما يُطلب من كل أبٍ فينا أن يفرّغَ ساعةً في كل يومٍ لأولاده، يجالسُهم ويكلّمُهم ويسمعُ لهم ويُسْمِعُهم، وساعةً في كل أسبوع؛ ليخرج معهم إلى مجلس علمٍ، وساعةً في كل شهرٍ؛ ليذهب معهم في زياراتٍ للأرحام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ**» [الترمذي].

رحم الله رجلاً قال: يا أهلاه! صلاتَكم، صيامَكم، زكاتَكم، مسكينَكم، يتيمَكم، جيرانَكم.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتى يعجِّلَ لنا بالفرَج.

والحمد لله رب العالمين